بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثنى عليه الخير كله، ونصلى ونُسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله النبى الأمين، الذى ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتمها جميعًا فى محكم كتابه - القرآن الكريم - الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله وتعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه - اللغة العربية - فحفظه حفظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذى نجده مكتوبًا فى بلايين النسخ من المصحف الشريف، ومدونًا فى وسائل التسجيل المختلفة، ومحفوظًا فى صدور البلايين من الحفَّاظ منذ أربعة عشر قرنًا وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بجلاله، وتنزيهًا له عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال الإلهى المقدس والمنزه عن جميع أوصاف خلقه.

وبعد: فلما كان القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدى الناس اليوم بنفس لغة وحيها - اللغة العربية - كان هذا الكتاب الكريم معجزًا فى كل أمر من أموره؛ لأنه لا بد وأن يكون مغايرًا لكلام البشر، فهو معجز فى بيانه ونظمه؛ لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فُصحاء العرب وبلغاؤهم وهم فى قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحُسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشىء من مثله.

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله ـ تعالى ـ فلا بد وأن يكون كل ما فيه حقّا مطلقًا: حديثه عن العقيدة (وهى غيب مطلق)، وعن العبادة (وهى أوامر إلهية محضة)، وعن كلّ من الأخلاق والمعاملات (وهى ضوابط للسلوك). والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزًا دومًا عن وضع ضوابط فى أىٍّ من هذه القضايا لنفسه بنفسه.

وكذلك إشارات القرآن الحكيم إلى الكون ومكوناته وبعض أشيائه وظواهره (لأنه كلام الخالق، ومن أدرى بالخلق من خالقه؟!)، واستعراضه لسير أعداد من الأنبياء السابقين، والأمم البائدة التى لم يدون لنا التاريخ شيئًا عنها، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدق القرآن فى جميع ما أورد.

والقرآن الكريم هو أيضًا معجز فى دستوره التربوى الفريد، وفى خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها فى معارج الله العليا إلى ما لا يمكن لأى خطاب آخر أن يصل، وفى إنبائه بعدد من الغيوب التى تحققت من قبل ولا تزال تتحقق، وفى تحديه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم ليقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم.

وعلى ذلك تتعدد جوانب الإعجاز القرآنى (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشىء من مثله) بتعدد الزوايا التى ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

١ ـ الإعجاز اللغوى، الأدبى، البيانى، البلاغى، النظمى، اللفظى، والدلالى.

٢ ـ الإعجاز العقدى (الاعتقادى).

٣ ـ الإعجاز التعبدى (العبادى).

٤ ـ الإعجاز الأخلاقى (بمعنى مواءمته للطبيعة البشرية بغير غلو ولا إقلال كما يتضح فى ضوابط السلوك).

٥ ـ الإعجاز التشريعى (كما يتضح فى فقه المعاملات).

٦ ـ الإعجاز التاريخى (الذى تؤكده الاكتشافات الأثرية للأمم البائدة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم).

٧ ـ الإعجاز التربوى.

٨ ـ الإعجاز النفسى.

٩ ـ الإعجاز الاقتصادى.

١٠ ـ الإعجاز الإدارى.

١١ ـ الإعجاز التنبؤى (الغيبى).

١٢ ـ الإعجاز العلمى.

١٣ ـ إعجاز التحدى للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشىء من مثله فى أسلوبه، أو مضمونه، أو محتواه، ولم يتمكن أحد من ذلك.

١٤ ـ إعجاز حفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد (وإلى قيام الساعة) دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، فى الوقت الذى تعرضت فيه كل صور الوحى السابقة للضياع، وما بقى من ذكريات بعضها على هيئة ترجمات (غير معلوم من كتبها، ولا متى كُتِبَتْ ولا أين كُتِبَتْ، ولا بأى لغة كُتِبَتْ؟) قد تَعَرَّض للتحريف تلو التحريف، والتحرير بعد التحرير، وإلى التبديلَ والتغيير، وإلى الحذف والإضافة، وإلى غير ذلك، من صور الاختلاف الذى لا يزال مستمرًا إلى يومنا هذا، مما أخرج تلك الرسالات السماوية السابقة عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، وهذا هو السبب الحقيقى من وراء المظالم العديدة التى تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها فى بحار من الدماء والأشلاء، والخراب والدمار باسم الدين، والدين الحقيقى منها براء. وليس أدل على ذلك من الجرائم البشعة التى ترتكب باسم اليهودية على أرض فلسطين منذ أكثر من خمسين سنة وحتى اليوم، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب بشراسة منقطعة النظير على أرض كل من البلقان، والعراق، وأفغانستان، والشيشان، وجنوب السودان وجنوب الفيليبين باسم المسيحية، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب على أراضى الهند، وتايلاند باسم كل من الهندوكية والبوذية، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال فى كثير من

أراضى المسلمين فى القديم والحديث وذكريات الحروب الصليبية، وجراح خروج المسلمين من الأندلس لا تزال تدمى قلوب كل إنسان عنده بقية من إنسانية.

ولهذه المفاضلة بين كتب تركت لأصحابها فضيعوها، وكتاب تعهد الله بحفظه فحُفظ، امتدح ربنا - تبارك و تعالى - لقرآن الكريم فى العديد من آياته والتى منها قوله - عز من قائل - :

* ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ـ ٢].

* ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

* ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

* ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

* ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ـ ١٤].

* ﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

* ﴿الٓرٰ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

* ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

* ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧].

* ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨].

* ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١].

* ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه : ١ ـ ٤].

* ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤].

* ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١ ـ ٢].

* ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[الفرقان : ٦].

* ﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة : ١ ـ ٣]

* ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦].

* ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ١ ـ ٢].

* ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ١ ـ ٣].

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

* ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

* ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١].

* ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤].

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

والقرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية فى أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل فى يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن، يفتح الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه على الإنسان من معرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغتر الإنسان بالعلم ومعطياته وتطبيقاته فى مختلف المجالات مما أوصل الإنسان إلى عدد من التقنيات المتقدمة خاصة فى مجالات الشر من مثل التجسس، وصناعة الأسلحة غير التقليدية مما يعرف باسم أسلحة الدمار الشامل، والتطوير المذهل فى القدرات التدميرية للأسلحة التقليدية، ومحاولة توظيف ذلك فى الهيمنة على الشعوب الصغيرة واستنزاف ثرواتها، وإذلال أبنائها. كما تفعل كل من الولايات المتحدة وبريطانيا فى هذه الأيام. وقد دفعت القوة المادية العمياء المصاحبة

لهذه التقنيات المتطورة أبناء هذه الأمم إلى نسيان الموت، والحساب، والآخرة، والجنة، والنار، خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراء شديدًا فى معتقدات غير المسلمين، مما دفع كثيرًا من علمائهم إلى إنكارها، والسخرية منها. ولكى يقيم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الحجة على أهل عصرنا، أبقى لنا فى محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوى من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفًا لأحد من الخلق فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحى، وذلك لأهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلى:

أولاً: الشهادة للخالق بطلاقة القدرة فى إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية؛ لأن كل شىء فى هذا الوجود قد خلق بقدر، وفى زوجية واضحة تشهد للخالق(سبحانه وتعالى) بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثانيًا: الشهادة لله ـ تعالى ـ أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا فى صفحة السماء، حيث تتباعد المجرات عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء، وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم. كذلك فإننا نرى مختلف صور المادة والطاقة تُبتلع بواسطة النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) إلى حيث لا نعلم، ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم.. !!

وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هى الحجة الرئيسية للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين؛ لأنهم من جهلهم يقيسون على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر، والبشر لا يقدرون على الخلق، ولا على البعث بعد الموت، بينما إرادة الله ـ تعالى ـ لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق.

ثالثًا: هذه الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون

ومكوناته، وتظل هذه المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار فى تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمنًا على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ فى وصفه القرآن الكريم بأنه «**لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد**»(١).

وليس هذا لغير كلام الله ـ تعالى ـ . . . !! **لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية فى القرآن الكريم غير الله الخالق؛** لأنه كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفى فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشىء من هذه الحقائق العلمية التى لم تكتشف إلا فى القرنين الماضيين، ولا تزال تكتشف إلى اليوم وحتى يوم الدين.

والإشارات الكونية فى القرآن الكريم جاءت فى أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالى سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهمًا كاملاً فى إطارها اللغوى فقط ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ وهو ما نسميه بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التى توافرت معرفتها لأهل زمننا؛ لأن فى هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمى ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون فى العلم ـ كلٌّ فى حقل تخصصه ـ ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التى تشير إلى مستقبلية الاستكشاف فى دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ :

* ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقوله ـ عز من قائل ـ :

* ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

---

(١) الترمذى (٢٩٠٦)، والدارمى فى «سننه» (٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦) من كلام عبد الله بن مسعود، وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٦٧).

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ:

* ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨].

وقوله ـ عز وجل ـ:

* ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وفى المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة، محددة المعنى، واضحة الدلالة، لا تحتمل غير وجه واحد، يفهمه البدوى فى قلب الصحراء، كما يفهمه أكثر الناس ثقافة وعلمًا، وهذا أيضًا جانب من جوانب الإعجاز القرآنى التى لا تحصى ولا تعد. ولذلك يحضنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضًّا على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول عز من قائل:

* ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ويقول عز وجل:

* ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول تبارك وتعالى:

* ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»(١).

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، وفهم رسالته المتضمنة فى آياته، والتماس غرائبه أى معرفة ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الآيات الكونية التى تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة

(١) الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٤٩) والخطيب فى «تاريخ بغداد» (٨/ ٧٧).

الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره فى زمن تنزل الوحى، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتى وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شيء عنها، وهذا الانتظام والاطراد فى سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير فى مواطن كثيرة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية فى القرآن الكريم عديدة، ولكن يمكن إيجازها فيما يلى:

١ ـ إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهمًا كاملاً فى إطار اللغة وحدها، والمعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

٢ ـ إن الإسلام والمسلمين يتعرضان اليوم لهجوم ظالم فى جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية؛ بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وإنكارهم الوحى بالقرآن الكريم، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا ـ عصر العلوم والتقنيات المتقدمة ـ على حجية ذلك كله، وباللغة التى يفهمونها.

٣ ـ إننا قصرنا فى التبليغ عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيراً، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم فضل الإسلام على غيره من الأديان، وفضل القرآن على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة فى كل من كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفى سنة رسوله ﷺ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا.

٤ ـ إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقى فيها كل الثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من تقنيات مختلفة، ولذلك فإن إثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بصدق القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

٥ ـ إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقى بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر، ومنه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، والذى لو أحسنّا توظيفه فى الدعوة إلى دين الله لفتح الله ـ تعالى ـ علينا الدنيا من أطرافها، والتجارب المحدودة فى هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته.

وعلى الرغم من ذلك عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يزالون، والسبب الرئيسى لذلك هو: ازدواجية التعليم، والمفاصلة الكاملة بين تعليم دينى / إنسانى / نظرى لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدنى / علمى / تقنى لا يعطى للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التى تعينه على فهم أصول دينه، وعلى حُسْنِ القيام بعباداته، وحُسْنِ التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغة، ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كلّ من الشرعيين والعلميين من الخوض فى هذه التجربة التى بدأها علماء المسلمين فى القرن الهجرى الثالث، واستمرت فى مد وجزر حتى عصرنا الراهن.

وكان من مبررات المعارضين ما يلى:

١ ـ اعتبارهم التفسير العلمى للقرآن الكريم نوعًا من التفسير بالرأى ـ وهو مذموم عندهم ـ ولكن المقصود بالرأى المذموم هو الهوى، وليس الرأى المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التى يقبلها كل عقل سوى، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادى الملموس.

٢ ـ اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استنادًا إلى ما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء فى كتاب الدكتور الفرنسى موريس بوكاى (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

٣ ـ إن القرآن الكريم هو كلام الله ـ فى صفائه الربانى ـ ولذلك فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسى، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير، أى لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس. وللرد على ذلك نقول: إن القرآن الكريم ـ الذى هو فى الأصل كتاب هداية ـ نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، وإننا لا نوظف فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلا الحقائق التى حسمها العلم والتى لا رجعة فيها.

٤ ـ إن العلوم الكونية انطلقت فى زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحيانًا صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذى قام فى بدايات عصر النهضة الأوروبية بين العلميين ورجال الكنيسة فى العالم الغربى، وانتهى بانحسار دور الكنيسة. وللرد على ذلك نقول: إن هذا الموقف كان فى البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمى فى الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين، ولذلك طالبنا ولا زلنا نطالب بضرورة أسلمة المعرفة بمعنى إرجاعها إلى أصولها الإسلامية أى بضرورة التأصيل الإسلامى للمعرفة.

٥ ـ إن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم ـ بغير خلفية علمية سليمة ـ إما تكلفوا فى تحميل الآيات ما لا تحتمله، أو توسعوا أكثر من اللازم فى إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعانى ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجلّ من ذلك وأكرم، وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين ـ كلٌّ فى حقل تخصصه ـ وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له ولا رابط، وهناك فرق كبير بين دور المحقق ودور الناقل.

وهذه الحجج كلها مردود عليها فى هذا الكتاب حجة حجة، غير أن خير رد عليها هو الدعوة إلى الالتزام بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ والتى أفردت لها بابًا كاملاً فى هذا الكتاب وأوجزها فيما يلى:

١ ـ حُسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ فى اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

٢ ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

٣ ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآنى، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد فى فهم النص القرآنى؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ.

٤ ـ عدم التكلف، أو لىّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك، انطلاقًا من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين.

٥ ـ البعد عن القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، مثل قضايا الروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، والميزان، والصراط، والذات الإلهية ـ وغير ذلك من غَيبيات مطلقة لا سبيل للإنسان فى الوصول إلى معرفة شىء عنها إلا عن طريق وحى السماء.

٦ ـ مراعاة التخصص الدقيق لكل محقق لموضوع من موضوعات الإعجاز العلمى فى كتاب الله ـ كلّ فى حقل تخصصه ـ لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض، وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

٧ ـ يجب تحرى الدقة والأمانة فى التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصى حتى يتحقق إخلاص النية فى ذلك.

٨ ـ الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهى حالة الآيات

والأحاديث التى تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاثة ـ خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعًا ثم بعثهم من جديد ـ لأن هذه من القضايا التى لا تخضع لإدراك الإنسان ومشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير ـ أى وضع نظرية من النظريات التى تتعدد بتعدد خلفية واضعيها ـ وفى هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة صريحة لها فى كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أو فى سنة رسوله ﷺ.

٩ ـ يجب التفريق بين قضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وذلك لأن التفسير العلمى هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية فى هذين المصدرين من مصادر وحى السماء، ونحرص فى التفسير العلمى على توظيف الحقائق العلمية كلما توافرت، ولكن لما كان العلم الكسبى لم يصل بعد إلى الحقيقة فى كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية السائدة فى تفسير الآية الكونية التى لا تتوافر حقائق لتفسيرها، ولا حرج فى ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة فى التفسير بعد ذلك؛ لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، ولكن ينسحب على جهد المفسر. أما الإعجاز العلمى فهو موقف من مواقف التحدى، والمتحدى لا بد أن يكون واقفًا على أرضية صلبة، ولذلك لا يجوز أن يوظف فى الإعجاز العلمى إلا الحقائق العلمية كما أوضحنا فى النقطة السابقة.

١٠ ـ عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم فى حدود المعارف العلمية التى كانت متاحة لهم كلٌّ فى زمانه.

الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم:

كتب كثيرون فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل: (الإعجاز البيانى، البلاغى، الأدبى، اللفظى، النظمى، الدلالى) منهم الجاحظ فى القرن الهجرى الثالث (ت ٢٥٥ هـ)، وكلّ من الواسطى (ت ٣٠٦ هـ)،

والرمـانى (ت ٣٨٦ هـ)، والخطابى (ت ٣٨٨ هـ) وهم من علمـاء القـرن الرابع الهـجرى، وكلّ من البـاقـلانى (ت ٤٠٣ هـ)، والقاضى عبـد الجبـار (٤١٥ هـ)، والظاهرى (ت ٤٥٦ هـ)، والجـرجـانى (ت٤٧١ هـ)، والغـزالى (ت ٥٠٥ هـ) من علماء القرن الخامس الهجرى، وكلّ من القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ)، والفخر الرازى (ت ٦٠٤ هـ) من علماء القرن السادس الهجرى، وكلّ من السكاكى (ت ٦٢٦ هـ)، والعـز بن عـبـد السـلام (ت ٦٦٠ هـ) فى القـرن السـابع الهـجـرى، والزركشى (ت ٧٩٤ هـ) من أعلام القرن الثامن الهجرى، والبقاعى (ت ٨٨٥ هـ) من القرن التاسع الهجرى، والسيوطى (ت ٩١١ هـ) من أعلام القرن العاشر الهجرى، والألوسى (ت ١٢٧٠ هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجرى، ونشطت الكتابة فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطًا ملحوظًا، وكان ممن خاضوا هذا المجال: الزرقانى، الرافعى، الجزائرى، المراغى، دراز، أبو زهرة، النورسى، محمد رشيد رضا، سيد قطب، بنت الشاطئ، بدوى، البيومى، العمارى، والمطعنى وغيرهم.

الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى كتابات الأولين:

أما الذين تناولوا الإشارات الكونية فى القرآن الكريم فكان فى مقدمتهم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى كـتـابه «الحيـوان»، وابن حـزم الأندلسى (ت ٤٠٥ هـ) فى كـتـابه «المفـصل»، والغـزالى (ت ٥٠٥ هـ) فى كـتـابيـه «إحـيـاء علوم الدين» و«جـواهر القرآن»، والفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى تفسيره «مفـاتيح الغيب»، وطنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩ هـ) فى موسوعته «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم»، ومحمد ابن أحـمـد الإسكندرانى الطبيب، وعبـد الله فكرى، وعبـد العـزيز سيـد الأهل، وأحمد مختار الغازى، وحنفى أحمد، ومحمد أحمد الغمراوى، ومحمد محمود إبراهيم، وإبراهيم عبد القادر محمد فرج، ومحمد جمال الدين الفندى، وعبد الرزاق نوفل، ويوسف مروة، وعبد الغنى الخطيب، وأحمـد محمود سليمان، وعبد الله شحاته، ومصطفى محمود، ويوسف السويدى، ومنصور حسب النبى، وعدد آخر من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وكان من طلائع المجاهدين فى هذا المجال كلّ من المرحومين ـ بإذن الله : الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى أستاذ الفلك السابق بكلية العلوم، جامعة القاهرة، ورئيس لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سابقًا، والأستاذ عبد الرزاق نوفل المستشار السابق بوزارة الزراعة المصرية، والأستاذ الدكتور عبد المحسن صالح أستاذ علوم الأحياء الدقيقة السابق بجامعتى القاهرة والإسكندرية، والأستاذ الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ السابق بهندسة القاهرة، والأستاذ الدكتور أحمد محمد مجاهد أستاذ النبات بجامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور محمد رشاد الطوبى أستاذ علم الحيوان بجامعة القاهرة.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أخى الحبيب، الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ وهو رئيس قسم الكيمياء الإكلينيكية السابق بكلية طب قصر العينى/ جامعة القاهرة، ورئيس الجمعية العربية للكيمياء الإكلينيكية، والذى وافته المنية فى مساء الثلاثاء ٢٢ من شوال ١٤٢٤هـ (الموافق ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٣م) فترك فراغًا كبيرًا، فقد كان ـ رحمه الله ـ فذّا فى تخصصه العلمى، حافظًا لكتاب الله، عالمًا بالقراءات العشر، فقيهًا فى دينه، مقيمًا لشعائره، منافحًا عنه، وحاملاً لقضاياه، أسس العديد من المنشآت الطبية الإسلامية، ومراكز تحفيظ القرآن الكريم، والمدارس الإسلامية، والمساجد، ومساكن الطلبة المغتربين والطالبات المغتربات تحت إشراف إسلامى ملتزم، وكان من أوائل مؤسسى جمعية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، والذى احتضنها فى أحد أبنيته الخاصة، وكثيرًا ما حاضر وناقش وكتب فى هذا المجال وكانت إشراقاته العديدة نورًا لنا على الطريق، فرحمه الله رحمة واسعة وجعل مثواه جنات الخلد فى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، اللهم آمين.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أخى العزيز الأستاذ الدكتور منصور محمد حسب النبى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ أستاذ ورئيس قسم الفيزياء بكلية البنات ـ جامعة عين شمس سابقًا، والذى أثرى هذا المجال بكتابات مؤصلة

تأصيلاً علميّا وشرعيّا صحيحًا، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم. وكان منهم الأستاذ الدكتور حسن أبو العينين ـ رحمه الله ـ أستاذ الجغرافيا الطبيعية بجامعة الإسكندرية سابقًا.

أما الأحياء من فرسان هذا الميدان فهم كثيرون وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يبارك فى أعمارهم وأعمالهم، وأن يجعل جهودهم خالصة لوجهه الكريم حتى يكملوا المسيرة على خير إن شاء الله رب العالمين.

التحاقى بركب المشتغلين بقضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

بدأت الاهتمام بقضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولى إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١م، حين تعرضت ـ وتعرض غيرى من الطلاب المسلمين ـ لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية، يمينية ويسارية، وكانت تيارات عاتية بأيدى العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سخروا لمهاجمة الإسلام والمسلمين، وكان فى مواجهة هذا التيار التغريبى تيار إسلامى قوى ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوى، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذى وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا فى علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج ـ بارك الله فى عمره وأحسن لنا وله الخاتمة ـ الذى كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة فكوّن مدرسة علمية فى هذا المجال أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء. وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ الذى كان يشغل منصب رئيس قسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة فى ذلك الوقت وكتب كتابًا قيمًا بعنوان «إعجاز القرآن وطبقات الأرض»، وصال وجال بهذا الأمر فى العديد من المحاضرات والمناظرات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

وكان من الفرسان المجاهدين فى هذا الميدان أيضًا الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى ـ رحمه الله وأجزل له المثوبة ـ الذى عمل أستاذًا للصيدلة بجامعة القاهرة، وعميدًا لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث شرفت بمعيته، وسعدت بصحبته. ومن مؤلفاته العديدة: «فى سنن الله الكونية»، «الإسلام فى عصر العلم».

هذا بالإضافة إلى التحديات التى لقيتها فى طفولتى وشبابى من الحملات التنصيرية التى قادها عدد من المؤسسات البريطانية والأمريكية فى مصرنا الحبيبة، وكان من ضمنها المدارس والمستشفيات التنصيرية من مثل المستشفى الأمريكى فى مدينة طنطا والذى كان أطباؤه وممرضوه يجوبون الريف فى محافظة الغربية فى محاولات يائسة لشراء دين الفقراء والبسطاء بقطرة دواء أو بنصيحة طبية، ولكن باءت جهودهم بالفشل، وكان من ضمنها كلٌّ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ونشاطاتها الثقافية، والكلية الأمريكية للبنات بالقاهرة وكانت الدراسة فيها داخلية لتعريض الطالبات لأطول مدد ممكنة من عمليات غسيل المخ، وكانت تصلنا أخبارهن بالتفصيل ونحاول الرد على ما يتعرضن له من ضغوط.

ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن أسافر إلى بريطانيا فى سنة ١٩٦١م للدراسة لدرجة الدكتوراه، أى بعد خمس سنوات من وقوع الاعتداء الثلاثى الغادر على مصر فى سنة ١٩٥٦م، والذى اشتَرَكَتْ فيه كلّ من بريطانيا وفرنسا، والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين، وكانت مشاعر البريطانيين مشحونة كراهية لكلّ من مصر، والعروبة، والإسلام.. !! ووجدتنى منذ اللحظة الأولى لوضع قدمى على التراب البريطانى مضطرًا للدخول فى مناظرات وحوارات ساخنة مع أعداد من غلاة الحركة الصهيونية العالمية المتغلغلة فى المجتمع البريطانى والمهيمنة عليه بالرغم من قلة عددها الظاهر، ومع عدد من متعصبى الحركات الصليبية المحلية والعالمية، ومع غلاة المناصرين للسياسة البريطانية الاستعمارية وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت.

وتلى ذلك عملى فى عدد من الجامعات العربية، حيث كان الناس ـ فى غالبيتهم الساحقة ـ مفتونين بالقومية العربية فتنة كبيرة، ومن أجل انتصارهم لهذه الدعوة

العرقية التى نهانا عنها رسول الله ﷺ صبوا جام غضبهم على الدين، وكان علينا أن نحاورهم بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة والمنطق السوى.

ثم شاءت إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين فى مهمة علمية قضيتها أستاذًا زائرًا فى جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنچيليس. وكلفت منذ الأسبوع الأول لوصولى إلى تلك المدينة بالمشاركة فى حوار ثلاثى بين الإسلام والمسيحية واليهودية تم فى جامعة كاليفورنيا ثم على التلفاز الأمريكى، كما شاركت فى حوارات متعددة نظمها «مجلس الأديان فى المدينة ـ The Inter -Religious Council»، وانتظمت فى إلقاء خطبة الجمعة، ومحاضرة السبت، طيلة إقامتى فى لوس أنچيليس، وفى الحوار مع العديد من المنظمات الدينية والفكرية فى المدينة، وتحركت منها إلى عدد من الجامعات والمدن الأمريكية الأخرى.

ثم حدث أن زار الولايات المتحدة الأمريكية وأنا مقيم بها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ وكان فى صحبته الكريمة كلٌّ من فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ، وفضيلة الشيخ محمود خليل الحصرى ـ طيب الله ثراه وأكرم نزله ـ وطلب منى فضيلة الإمام الأكبر الترجمة عنه وله، وكانت فرصة طيبة للنهل من علمه الغزير وللدخول فى حوارات عدة مفيدة.

وحدث أيضًا فى فترة إقامتى بالولايات المتحدة الأمريكية أن تمت زيارة الرئيس السادات للقدس الشريف وهو تحت الاحتلال الصهيونى الغاصب، واشتعلت المشاعر بين معارض لتلك الزيارة وراض بها، وانهالت الطلباتُ علىّ للمحاضرة عن القضية الفلسطينية فى العديد من الجامعات الأمريكية، وللحوار مع عدد من غلاة الصهاينة على الأرض الأمريكية ومؤيديهم الدينيين والسياسيين خاصة أبناء الكنيسة الإنجيلية. ومن خلال تلك المحاضرات والمناظرات اتضح لى بجلاء جهل الغربيين بحقيقة الإسلام والمسلمين، واستغلال الحركات المعادية لنا: من صهيونية وصليبية واستعمارية لهذا الفراغ الذى تركناه نحن المسلمين بالتقصير فى التبليغ عن ديننا؛ ليملأوا أذهان الغربيين بالخوف من هذا الدين، وبتحذيرهم من إمكانية عودة

المسلمين إلى وحدتهم، وإلى تمسكهم بدينهم، ووسائل الإعلام الغربية كلها فى أيدى عتاة الصهيونية العالمية، فنجحوا فى ملء قلوب الغربيين بكراهية الإسلام والخوف من المسلمين. وليس أدل على ذلك من سيل الكتابات تحت عناوين مستفزة من مثل «صراع الحضارات»، «الخوف من الإسلام»، «المسلمون قادمون»، «الموجة الثالثة»، «الله له تسعة وتسعون اسمًا»، «الإسلام والإرهاب»، وغيرها. وليس أدل على ذلك أيضًا من المؤامرات الغربية التى أدت إلى ثلاث حروب بالخليج، بالإضافة إلى حروب البلقان، وأفغانستان، والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب كل من الفيليبين والسودان. وقد تعاظم حجم هذا الكيد في غزو كلّ من أفغانستان العراق، وتعريض شعبيهما الأعزلين لأبشع صور التعذيب الوحشى والإذلال التعسفى النابع من حب التشفى. وفى الصمت المطبق للعالم كله إزاء الجرائم الإسرائيلية البشعة التى تقترفها منذ أكثر من خمسين عامًا مجافية بذلك كل الأخلاق، وانقيم، والأعراف، والأديان، والقوانين الدولية: من قتل للأطفال، والنساء، والشيوخ، والشبان بالآلاف، وهدم للمنازل، والمساجد، والمدارس، والمستشفيات، وتجريف للأراضى الزراعية، وتخريب للبنية الأساسية، واعتقال لعشرات الآلاف من الشباب وتعريضهم للتعذيب الوحشى حتى الموت أو العاهات الدائمة، ونفى العشرات منهم إلى خارج حدود بلدهم. والإدارات الأمريكية المتعاقبة تعتبر كل هذه الجرائم دفاعًا عن النفس، هذا بالإضافة إلى الصمت المطبق فى مذابح المسلمين فى البلقان، وفى الشيشان، وفى كشمير، وأراكان، وجنوب الفيليبين، وتايلاند وغيرها.

واتضح لى كذلك أن المخرج الوحيد لنا من هذا المأزق التاريخى هو حسن التعريف بهذا الدين من مصادره الصحيحة: القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، باللغة التى يفهمها أهل عصرنا وهى لغة العلم، وذلك بعرض جوانب من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، وللسنة النبوية المطهرة، دون الخوض فى الخلافات الدينية أو السياسية أو التاريخية. وانطلاقًا من ذلك كان اهتمامى بهذه القضية التى كرست لها جزءًا كبيرًا من حياتى، وجبت من أجلها العالم من كندا،

والدول الاسكندناقية وروسيا شمالاً، إلى استراليا، وجنوب أفريقيا جنوبًا؛ ومن الأمريكيتين غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا.

وفى إحدى هذه الجولات حدث أن دعانى سعادة الأخ العزيز الدكتور غازى القصيبى وهو يعمل سفيرًا للمملكة العربية السعودية بلندن لإلقاء محاضرة بالمركز الإعلامى السعودى بتلك المدينة وذلك فى مساء ٥/ ١١/ ١٤١٨ هـ (الموافق ٣/ ٣/ ١٩٩٨م)، وقد أثارت المحاضرة حوارًا ممتعًا بعدها، وعلق عليها الصحفى الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين تعليقًا طيبًا بزاويته فى **جريدة الحياة والمعنونة «من الحياة»**، وذلك بتاريخ ٧/ ١١/ ١٤١٨هـ (الموافق ٥/ ٣/ ١٩٩٨م)

ثم استضافنى الأخ الأستاذ أحمد منصور للقاء على قناة الجزيرة فى برنامجه المعنون «بلا حدود» وإذا بالبرنامج يحدث صدى كبيرًا عند الذين شاهدوه، وكانت منهم الأخت الفاضلة والصحفية القديرة الأستاذة ابتسام الهوارى التى كتبت عن هذا اللقاء فى يوميات الأخبار بتاريخ ٢٦/ ٦/ ١٤٢٠هـ (الموافق ٦/ ١٠/ ١٩٩٩م) تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلامًا فوق ما أستحق، فجزى الله الجميع عنى خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافنى الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكرى للقاء على القناة المصرية الثالثة مما أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية. ثم غبت فى عمل بانجلترا لفترة من الزمن.

وفى صبيحة الأربعاء العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢١هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة ٢٠٠٠م) مررت بالقاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى دبى للمشاركة فى البرنامج الثقافى المصاحب لاحتفالاتها بجائزتها الدولية للقرآن الكريم، ومنها إلى الكويت بدعوة من وزارة الأوقاف فيها للمشاركة فى برنامجها الدعوى بمناسبة شهر رمضان المبارك، ومن الكويت إلى البحرين بدعوة من «جمعية النور للبر» للمشاركة فى برنامجها الثقافى بمناسبة الشهر الفضيل. ومن البحرين وصلت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الإذاعى الكبير والأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتى فى حلقتين من برنامجه التليفزيونى

الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة غادرت القاهرة إلى لندن ومنها إلى ماركفيلد، حيث كنت أعمل مديراً لمعهد الدراسات العليا فيها.

وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى من لقائى مع الأستاذ أحمد فراج ولم أشاهدها، ومن بعدها الحلقة الثانية ولم أشاهدها أيضًا، ولكن بدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى، وهى تحمل التعبير عن تأثر المشاهدين بهاتين الحلقتين لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى مصر، بل فى كثير من الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإعجاب شديد. وعلمت أنه تحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصرى والفضائية المصرية ببث الحلقتين متتاليتين ومجتمعتين عدة مرات فى غير سابقة لذلك. ولم تتوقف الاتصالات بى بخصوص تأثير هاتين الحلقتين على مصر والمصريين، بل جاءت من عدد غير قليل من كبار الشخصيات العربية والإسلامية، وكان من أهم هذه الاتصالات بى اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة فى رئيس مجلس إدارتها الأستاذ الكبير إبراهيم نافع ـ حفظه الله ـ الذى طلب مقابلتى عند أول زيارة لى للقاهرة، فاستجبت لذلك شاكراً ومقدراً.

وفى فجر الاثنين ١١/ ١١/ ١٤٢١هـ (الموافق ٥/ ٢/ ٢٠٠١م) وصلت إلى القاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى كلّ من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة حيث حضرت مؤتمراً عن القرآن الكريم، فاستقبلت فى مطار القاهرة استقبال الفاتحين. وفى صبيحة اليوم التالى سعدت بلقائى بالأخ الكريم والصحفى الكبير الأستاذ إبراهيم نافع الذى عرض علىّ مشكوراً تخصيص صفحة كاملة بجريدة الأهرام الغراء للكتابة عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فشكرته على ذلك ودعوت له بكل خير. وقد رعى الأستاذ الكبير على غنيم نائب رئيس مجلس الإدارة ومدير عام المؤسسة هذا الأمر بعنايته، واقترح الصحفى الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ـ رحمه الله ـ عنوانًا للصفحة هو «من أسرار القرآن».

وابتداءً من الاثنين ٢٩/ ١/ ١٤٢٢هـ (الموافق ٢٣/ ٤/ ٢٠٠١م) بدأت فى كتابة مقال أسبوعى بجريدة الأهرام الغراء تحت هذا العنوان: «من أسرار القرآن:

الإشارات الكونية فى القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» فى سلسلة صدر منها حتى تاريخ ٢١/ ٧/ ١٤٢٥ هـ (الموافق ٦/ ٩/ ٢٠٠٤م) أكثر من مائة وخمسين مقالاً.

والكتاب الذى يقع بين يدى قارئه الكريم يمثل خمسة مقالات من تلك المقالات، جمعتها تحت عنوان: «**من آيات الإعجاز العلمى (٤): النبات فى القرآن الكريم(أ): آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة فى القرآن الكريم**»، وسيتبع هذا الكتاب إن شاء الله ـ تعالى ـ ببقية المقالات حسب أبوابها إن كان فى العمر بقية.

ولا يفوتنى هنا أن أسجل لمؤسسة الأهرام الصحفية ـ بصفة عامة ـ ولأخى الكريم الأستاذ إبراهيم نافع ـ بصفة خاصة ـ هذا الفضل الذى أسبغاه عَلَىَّ بدعوتى كى أكون من الكتّاب المنتظمين بالأهرام، وهو شرف أفخر به وأعتز. وأسجل أيضًا أن هذا القرار التاريخى الذى أفسح للقرآن الكريم صفحة كاملة فى كل أسبوع (ولأول مرة فى تاريخ جريدة الأهرام العريقة، وهى أقدم وأكبر وأهم الصحف العربية على الإطلاق، وأكثرها انتشاراً فى العالم) هذا القرار سوف يبقى صفحة من نور فى تاريخ هذه المؤسسة، وعملاً ضخمًا وثقيلاً فى موازين كل من أعان على اتخاذه حتى أصبح حقيقة قائمة. ولست أملك حيال ذلك إلا أن أتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء الصادق أن ينفع أمتنا العربية بما ينشر فى هذه الصحيفة، وأن يجزى كل صوت حر نزيه فيها خير الجزاء، وأن يعين القائمين بمسئوليتها على السير بها فى طريق الحق، والخير، والرشاد، والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى ٢١/ ٧/ ١٤٢٥هـ

٦/ ٩/ ٢٠٠٤م

الفقير إلى عفو ربه

زغلـول النجـار